الباب الأول
الدراسة الموضوعية

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول
المديح

نال شعر العماد رعاية كبيرة من لدن الدارسين القدامى ونقلوا منه جزءًا كبيرًا من لدن الدارسين القدامى . ونقلوا منه جزءًا كبيرًا ، ورأوا أيضًا أن شعره أسلس من نثره وأجمل ، لاحتفائه بالمعنى والصورة ، ومزجه بين الطبع والصنعة ، وتصويره للأحداث المثيرة التي شاهدها أثناء مرافقته للأبطال الشجعان من الدولتين النورية والصلاحية إلى جانب تصوير حياته الخاصة وما فيها من انفعالات وجدانية . وسنحاول دراسته من خلال النصوص لنبين مذهبه الفني ومكانته بين شعراء القرن السادس الهجري .

نحا الخلفاء العباسيون المتأخرون منحى آبائهم العظام في رعاية أرباب المواهب ، في ميداني الشعر والنثر . وإسناد الوظائف الكبيرة إليهم . وكان العماد الأصفهاني – وهو الناشئ في بيت السؤدد والكتابة – واحدًا من العاملين معهم ، وقد دفعه طموحه في ارتقاء المناصب العالية ، واعتلاء المنازل الرفيعة إلى التقرب منهم ومدحهم . والثناء عليهم ، وبيان مآثرهم . وكان حصيلة ذلك مجموعة من القصائد في الخلفاء الأربعة : المقتفي لأمر الله ، والمستنجد بالله ، والمستضيء بأمر الله ، والناصر لدين الله ، **ويمكن تقسيم المديح عنده إلى :**

(1) مدح الخلفاء الأربعة :

أولاً : الخليفة المقتفي لأمر اللّه :

إن أول خليفة حرَّك لسان العماد كان المقتفي لأمر الله ، وصرح بذلك ، فقال[1] :" وكان وصولي إلى بغداد في الأيام المقتفوية لأمر الله ، وفي ظلها المنشأ وفي فضلها المربى . وفي جوارها حصل الأمن ، ووصل المن ، وبخدمتها عرفت . وبنعمتها تعرفت ، وفي جنابها حلا المجنى ، وعلا السنا ، وأول من مدحته من الخلفاء المقتفي – ﷺ – خدمته في 552هـ ، بقصيدة عقيب انكشاف كربة الحصار برحيل محمد شاه عن بغداد" :

أَضحتْ ثغورُ النَّصرِ تبسمُ بالظَفَرِ ... وغدتْ خيولُ النَّصرِ واضحةَ الغُرَرْ

يا ابنَ السَّراةِ ذوي العُلى مِنْ هاشمٍ ... والأكرمينَ أُولي المناقبِ من مُضَرْ

مُتقلّدي الدَّكر المنزّل فيهمُ ... انْ نازلوا بَدلاً العَضْبِ الدَّكرْ

أنتَ ابنُ عمِّ المصطفى وسميُّه ... أبشرْ فإنّكَ بعدَهُ خيرُ البشرْ!

من راحتيكَ المُزنِ في المَحْلِ اجتدي ... والى سَناكَ البدرُ في الليلِ افْتَقَرْ

أدنى وليٍّ في رضاكَ مُعَظّمٌ ... وأَجَلُّ ذي مُلْكٍ بسخطكَ مُحْتَقَرْ

أضحَى حمى الباغي رضاكَ ممنَّعاً ... بينَ الوَرَى وغَدَا دَمُ البَاغي هَدَرْ

بكمُ الورى في نعمةٍ لا تَنقضي ... لا تنقضي واللّه نعمةُ من شَكَرْ

في أنفسٍ بكم تُقَرُّ وألسنٍ ... بكمُ يَقِرُّ وأعينٍ بكم تقَرْ[2]

تناول الشاعر في القصيدة جوانب حماسية ، اقتضتها المناسبة ترسم صورة لخليفة المسلمين ، وهو يصف العباد بالعدل والإنصاف ، ويبعد عنهم الظلم

---

(1) الخريدة : قسم العراق 1 / 36 .

(2) الديوان ص 151– 152، تقر الأولى بمعنى تسكن ، والثانية تعترف ، والثالثة تفرح أى مسرورة ، يقال: قرت عينه : أى بردت سروراً ، وانقطع بكاؤها .

والاعتساف ويصرخ في خاتمتها ، وبصياغة جميلة ، أسباب هجرة الأوطان ، ونأيه عن الخلان ، وانتمائه إلى أطيب بيت وأندى منبت [1] :

لما رأيتُ مَنارَ بيتكَ كعبةً ... وافيت فيمن حَجَّ بيتكَ واعتمرْ

وهجرتُ أوطاني إليه، ومَنْ رأى ... شرفاً له في أنْ يفارقها هَجَرْ

ونأيتُ عن قومي ليرفعَ دونهم ... قدري اصطناعُك لي فجئتُ على قَدَرْ

وللعماد قصيدة أخرى في مدح الخليفة المقتفي لأمر الله آلف فيها بين أساليب القدامى ومنازع المحدثين ، فأطال في مقدمتها الغزلية ، وتحدث عن الوصل والهجران والعتاب الشديد للحبيبة التي لامته ، لأنه جعل وكده ندى الكرام ، فقال [2] :

مُضَرَّيةٌ عدَلتْ على حبِّ النَّدى ... مَنْ ليسَ يسمعُ فيه عذْلَ العاذلِ

يا هذه ! لولا السَّماحةُ لم يكُنْ ... ينميك خيرُ عشائرٍ وقبائلِ

عنفت في حبِّ السَّماحةِ مُؤثراً ... عُدْمَ الكريمِ على ثراءِ الباخلِ

يسرف شاعرنا في نهاية الأبيات السابقة فى وصف كرم الخليفة وجوده ، وتشبيهه بالبحر،وصورة البحر – وإن تقلب عليها الشعراء – مبالغ فيها إلى حد غير معقول . إن هذا الشعر- على ما يبدو- صادر عن اللسان لا الجنان ، اتخذه الشاعر وسيلة لغاية معلومة هي الجاه والمال كما نوَّه بذلك في قوله :

وإذا حَظيتُ من الإمامِ برتبةٍ ... فيها الفخارُ على جميع الناسِ لي

لا زلتَ غيثَ مواهبٍ وبقيتَ غَوْ ... ثَ ممالكٍ وسلمتَ كَهْفَ أَرامِلِ[3]

(1) الديوان ص154.
(2) الديوان ص347- 348 .
(3) الديوان ص 349 .

ويمدح شاعرنا الخليفة بمدح فيه غزل فى أول القصيدة ، كما في قوله [1]:

كُــنْ عــاذري في حُــبِّهم، لا عــاذِلي ... يــا فارغــاً عــن شُـغلِ قلـبي الشَّـاغلِ

هَــبْ أَنَّ سمعــي للنَّصــيحةِ قابــلٌ ... مــا نــافعي والقلــبُ لــيس بقابــلِ

أخفيــتُ سِـرَّ الوَجْـدِ خيفـةَ عُـذَّلي ... فتعرَّفــوا مِــنْ أدمُعــي ومَخــايلي

لم يقبلــوا عُــذرَ المحــبِّ وقــابلوا ... حــقَّ الهــوى مــن لــؤمهم بالباطــلِ

مَــالُوا إلى وصــلي فحــينَ وَصَــلْتُهم ... مَلُّــوا ولــيس يُمَــلُّ غــيرُ الواصــلِ

ثم يخرج الشاعر من غزله ويحسن الخروج أو التخلص إلى مدح الخليفة ويبالغ في مدحه ، ويصف الجيش وغبار المعركة ، والشمس التي تظهر كالبدر في الليل الداجي ، والخيل كالنسور والصقور ، كما في قوله [2]:

في كَفِّــهِ للجُــودِ خمســةُ أبحــرٍ ... فَيّاضــةٍ تُسْــمى بخمــس أنامِــلِ

ممــدودُ ظــلِّ العــدلِ لــيسَ بزائــلٍ ... معمــودُ رُكــنِ المُلــكِ لــيسَ بمائــلِ

وَعَــرَ مْــرَمٍ لَجِــبٍ كمثْهــالِ النَّقــا ... مَجْــرٍ ومنهــلِّ السّــحابِ الهامِــلِ

ســترَ الغزالــةَ بالعجاجــةِ مُطْلِعــاً ... رُهــرِ الأسِّــنة في سمــاءِ قســاطلِ

فالشّمسُ مــا بــينَ العجــاجِ كأَنّهــا ... بــدرٌ تطلّــع جُــنْح ليــلٍ لائــلِ

والنقْــعُ ينْصُــلُ بالنُّصــولِ خِضــابُهُ ... فكأنّــه لَــوْنُ الشَّــبابِ النَّاصِــلِ

وا لمُقرَبــاتُ بأنْسُــرٍ وقــوائمٍ ... تحكــي قــوادِمَ أنْسُــرٍ وأجــادِلِ

في مــأزِقٍ لا يســمعُ الــواغي بــه ... اِلاّ أنــينَ صَــوارمٍ وصــواهِلِ

والجــيشُ مَــنْ مَلــكَ الجيــوشَ برأيــهِ ... في صــائبٍ وبجأشــهِ في صــائلِ

---

(1) الديوان ص 345 – 346 .
(2) الديوان ص 348 – 349 .

هــزم العــدا قبــلَ اللّقــاءِ برعبــهِ فغــدوا بــأُمٍّ في الشَّــقاوةِ هابــلِ
طلبــوا الفــرارَ ولم يــزلْ مــتكفّلاً بهزيمــة الرِّعْديــدِ بــأسُ الباســلِ

فنحن أمام مشهد حربي بطولي يصوره لنا الشاعر بروعة ودقة ، ففي هذه الحرب لا يسمع المحارب سوى صوت السيوف والدروع وصهيل الأحصنة، وقراع الطبول ، فهو قائد الجيوش برأيه الصائب وقوله السديد ، فهزم الأعداء قبل لقاءهم بسبب رعبه ، وفقدت الأم ولدها ، فطلبوا الفرار والهروب .

ثانياً : مدح الخليفة المستنجد باللّه[1] .

قال فيه مثلما قال في الخليفة المقتفي لأمر اللّه ، بل زاد في التهويل والمبالغة حين وضعه في الذروة من المجد والسمو والكرم والمهابة والبطولة ، وتكاد قصيدته التي مدحه بها – بعد إلقائه في غياهب السجن إثر وشاية لفقت عليه – يكون من أكثرها وقعًا في النفوس ؛ لأنها صدرت عن تجربة حزينة ومريرة ، ومعاناة صادقة، يقول في أولها[2] :

أُعيــدُكمُ أنْ تغفلــوا عَــنْ أُمــورهِ وأنْ تتركــــوهُ نُهبــــةً لُمغــــيرهِ
عفــا اللّهُ عــنكم قَــدْ عَفَــا رَسْــمُ وُدِّكــم خلعــتُمْ علــى عهــدي دِثــارَ دُثــورهِ
بمــا بيننــا يــا صــاحبي مِــنْ مــودَّةٍ وفــــاءَكَ إنـــي قـــانعٌ بيســـيرهِ
وهــذا أوانُ النُّصحِ إنْ كنــتَ ناصحاً أخـــاً فقبـــيحٌ تركُـــهُ بغـــرورهِ
وإنـــي أرى الأريَ المَشـــورَ مَشـــورةً حَلَــتْ موقعاً عند امرئٍ من مُشيرهِ
تحمَلْــتُ عِــبءَ الوَجــدِ غــيرَ مُطيقــهِ وعَلّمــتُ صــبرَ القلــبِ غــيرَ صَــبورهِ

(1) هو الخليفة المستنجد بالله يوسف بن محمد بن أحمد بويع للخلافة 555هـ ، وتوفي 566هـ ، انظر الخريدة : قسم العراق 1 / 56 .
(2) الديوان ص 217 – 218 .

obeikan.com

صِلوا مَنْ قضى مِنْ وحشةِ البَينِ نحبهُ ونَشـرُ مطـاوي أُنسـهِ في نُشـورهِ
رعى اللّٰهُ نجداً إذ شكرنا بقربكم قِصـارَ ليـالي العـيشِ بـينَ قصـورهِ
وإذْ راقـتِ الأبصارُحُسـنى حسـانهِ وأطْرَبـتِ الأسمـاعُ نجـوى سَـميرهِ

نـرى في الأبيـات السـابقة نـبرة حـزن وعتـاب وشكوى إلى الخليفـة المستنجد باللّٰه من تركه واعتقاله بالديوان ، فقد أطال في مقدمتها ، وعدد أبياتها خمسون بيتًا ، وجاءت على غرار حجازيات الشريف الرضي .

وكـان مـن الأفضـل أن يتغنـى بالممـدوح ويوضـح أعمالـه العظيمـة ، وفضـائله النبيلة ، وخصاله المحمودة ، إلا أنه اهتم بنفسه ، فذكر صفاته ومحامده ، وأرومته التي ينتسب إليها ، والآلام التي يعاني منها عُقيب كبوته ، مازجًا ذلك بفيض من الحكمة والموعظة وتجارب الحياة وذلك في قوله [1]:

ومـا كنـتُ أدري أنَّ عقلـيَ عـاقِلي وأنَّ سـراري حـادثٌ مِـنْ سُـفورهِ
وكان كتابُ الفضلِ باسمي مُعنونـاً فحـاولَ حَظّـي مَحـوَهُ مِـنْ سـطورهِ
فيـا ليـتَ فضـلي الآسـري قـد عَدِمتُـه فأضـحى فـداءً في فكـاكِ أسـيرهِ
أرى الفضـلَ معتـادٌ لـه خَسفُ أهلـهِ كمـا الأُفـقَ معتـادٌ خسـوفُ بـدورهِ
أقـولُ لعزمـي: إنّ للمجـدِ منهجـاً سـهولُ الأمـاني في سـلوكِ وعـورهِ
فهـوِّنْ عليـكَ الصَّـعبَ فيـه فإنّمـا بأخطـارهِ تَحْظَـى بوصـلِ خطـيرهِ

(1) الديوان ص 219-220 .

واستطاع الشاعر أن يتخلص من هذه التهمة، بتخلص ذكي ، وفيه شيء من البراعة التي أقضت مضجعه ، وحرمته من لذة الكرى ، وحاول أن يلين قلب ممدوحه كما في قوله[1] :

لماذا حبستم مخلصاً في ولائكم ... وما اللّٰه ملقي مؤمنٍ في سعيرهِ؟

ويمدحه بقصيدة أخرى يقول فيها [2]:

لكَ النُّور مَوْصُولاً بنورِ محمدٍ ... أضاءَت بهِ الأنسابُ عَنْ شرفٍ مَحضِ

وظِلّك في شرقِ البلادِ وغربها ... مَدِيدٌ على طولِ البسيطةِ والعَرْضِ

أنِمْتَ عبادَ اللّٰه أَمْناً فلم تدعْ ... عيونَ العدى رُعباً تكحّلُ بالغمضِ

فعهدُ الأعادي قالصُ الظلِّ مُنقَصٍ ... ونجمُ الموالي طالعٌ غيرُ منقضِّ

لقد فرضتْ منكَ النَّوافلُ شُكرها ... على النَّاسِ حتى قابلوا النَّفلَ بالفرضِ

وما الفرقُ بينَ الرُّشْدِ والغيِّ في الورى ... سوى حُبِّكم في طاعةِ اللّٰهِ والبُغضِ

رفَعتَ منارَ الدِّينِ عَدلاً فأهلُهُ ... من العزِّ في رفعٍ وبالعيشِ في خفضِ

يمدح الشاعر ممدوحه ويقول: بأن نوره موصول بنور سيدنا "محمد" خير الأنساب والشرف الخالص الذي لا يشوبه شيء ، وظل الممدوح الكريم منتشر في شرق البلاد وغربها فهو مديد على طول البسيطة وعرضها ، وهذا يدل على كرم وسخاء الممدوح ، فمن عدله ينام العباد في أمن وأمان ، وعيون الأعداء تعيش في رعب لا تستطيع أن تغمض عيونهم ، فقد أصبح عهد الأعادي في انقضاء ، ونجم موالينا طالع من غير انقضاء ، والناس يؤدون الفروض التي فرضها اللّٰه تعالى

(1) الديوان ص220 .
(2) الديوان ص 265 – 266 ،وانظر :مدحه للخليفه المستنجد بالله ،ص294، 295، 296، 399 ، 400 ، 401 ،402 .

وكذلك النوافل ، ثم يحثه على طاعة الله والرشد والبعد عن البغض والكره والغيّ ، ويعلو في مدحه ويقول له : أنت رفعت منار الدين عدلاً فأصبح الأهل في عز وعيش رغدٍ .

وهكذا استطاع العماد أن يخرج من سجنه بعد التكرم والتعطف والتوسل إلى الخليفة العباسي " المستنجد بالله " وأن يفرج عنه بعد أن مدحه بعدة قصائد ، وينال الجاه ؛ لكي يأمن عوادى الدهر وغوائله .

ثالثاً : الخليفة المستضيء بالله :

هو أحد الخلفاء العباسيين ومن أبرز ممدوحي العماد ، فقد خصَّه بقصائد كثيرة وأشار إلى ذلك بقوله : " ولي فيه مدائح تناسب منائحه كثرة وغزارة ، وأيام دولته غضارة ونضارة "[1] .

ووصلت من هذه المدائح ست قصائد ، كان قد بعث بها إلى بغداد وهو في دمشق وهي طويلة ، خلع عليها الكثير من تجاربه الفنية في الزخرف والتصوير ولا سيما في فصيدته الصادية التي يقول فيها[2] :

أطاعَ دمعي وصبري في الغرامِ عَصَى ... والقلبُ جرّعَ مِنْ كأسِ الهوى غصصا

وإنَّ صَفو حياتي ما يكدّره ... إلاّ اشتياقي إلى أحبابيّ الخلصا

ما أَطيبَ العيشَ بالأحباب لو وصلوا ... وأَسعدَ القلبَ من بلواه لو خلصا

زمُّوا فؤادي وصبري والكرى معهم ... غداةَ بانوا وزمُّوا للنّوى القلصا

ومقلةٌ طالما قرَّتْ برؤيتهم ... أضحى السُّهادُ لها من بعدهم رمصا

لم تحدرْ الدَّمعَ إلاّ أنها رفعتْ ... إلى الأحبّةِ من كربِ الهوى قِصصا

---

(1) انظر: الخريدة ، قسم العراق 1 / 63 .
(2) الديوان ص 249 – 250 .

فالشاعر يتحدث عن الأحباب الخلصاء الشرفاء ويعبر عن مدى حبه لهم واشتياقه لهم ، وحلاوة وصالهم ، ومرارة فراقهم ، وما يعانيه من أرق وقلق وتعب ، استنبطها خياله الخصب من مخزون ذكرياته عن العراق الذي عاش فيه زمن شبابه ، وبقي يحنُ إليه طيلة حياته التي قضاها في ربوع الشام ، فما أجمل العيش مع الأحباب ، وما أسعد القلب إذا تخلص من بلواه .

ونراه يعاتب الغانيات الحسان اللواتي زهدن فيه بعد أن أصبح الشيب أعلى مفرقه ، كما في قوله [1]:

أطاعتِ الغانياتُ الغيدُ منه فتىً ... إذا لحى في هَواهنَّ العَذولِ عَصى

ما بالهُنّ رَهِدْنَ اليومَ فيهِ وقَدْ ... أفادهُ الشَّيبُ تجريباً وثقلَ حَصى

كَرِهْنَ بعدَ سَوادٍ شيبَ لِمَّته ... لمّا رأَينَ بياضاً حَلْتَهُ بَرَصا

وحينما وصل إلى ممدوحه أمطر عليه وابلا من عبارات الإطراء ، وألفاظ الإعجاب والمدح والثناء ، في إطار من التملق والتزلف ، لكي ينال رضا الممدوح ويكسب وده ، ويفتح يده لقضاء حاجته، كما في قوله :

وإنَّ عنديَ ذا التوحيدِ مَنْ شَكَرَالـ ... نعمى لديكَ وذا الإشراكِ مَنْ غمصا[2]

سأجتدي وابلاً مِنْ جودهِ غَدقاً ... وأمتري حافلاً مِنْ خِلفه لَخِصا

ونراه يشبه الفرنج بعواء الكلب من شدة الخوف ، وقيصر الروم إلتوت قدمه من كثرة المشي والهروب من وسط الميدان ، وفقرات ظهر الأعداء قد قهرت ووقمت ومن شدة سطوته وقوته نرى العدو قد نكص على أعقابه وذلك في قوله :

---

(1) الديوان ص 251 .
(2) الديوان ص 254 – 255 .

obeikan.com

كلبُ الفرنجِ عَوى مِنْ خوفِ صولته ... وقيصرُ الرُّومِ مِنْ إقدامِهِ معِصَا
سطا فكم فِقْرَةٍ للكفرِ قَدْ وُقمَتْ ... وكم وكم عنقٍ للشّركِ قد وقَصَا
مِنْ خوفِ سطوته أنَّ العدوَّ إذا ... أمَّ الثُّغورَ على أعقابِهِ نكصَا

ويمدحه قائلا :

لَهفي على زمنِ الشَّبابِ! فإنّني ... بسوي التأسّفِ عنه لم أتعوضِ
نُقِضَتْ عُهودُ الغانياتِ وإنها ... لولا انقضاءُ شبيبتي لم تَنقضِ
كان الصّبا أضفى الثياب وإنما ... ذهبتْ نضارةُ عيشتي لمّا نُضي
يا حُسنَ أَيام الصِّبا وكأنها ... أيامُ مولانا الإمامِ المستَضِي!
ذو البهجةِ الزَّهراءِ يشرقُ نورُها ... والطَّلعةِ الغَرَّاءِ والوجهِ الوَضي
قسَمَ السَّعادةَ والشَّقاءَ ربنا ... في الخلقِ بينَ محبِّهِ والمبغضِ
أضفى ظلالَ العَدْلِ بعدَ تقلُّص ... وبنَى أساسَ العدلِ بعدَ تقوُّضِ
فضلَ الخلائفَ والخلائقَ بالتُّقى ... والفضلِ، والإفضالِ، والخلقِ الرَّضي
فانْعمْ أميرَ الْمُؤمنينَ بدولةٍ ... ما تنتهي وسعادةٍ ما تنقضي[1]

يطرأ على شاعرنا في الأبيات الماضية نبرة حزن وشجن ، فنجده يتحسر على زمن الشباب الذي ضاع هباءً ، ولم يبق سوى التأسف عليه ، فنحن لا نستطيع تعويضه ، فقد ذهبت معه عهود الغانيات الحسان وظهرت علامات الشيخوخة والشيب ولولا هذا ما انقضت هذه العهود ، وكانت أيام الصبا أجمل الأيام وأحلى الثياب يرتديها الإنسان ، فذهبت نضارتها عند تخلعها ، فكانت أيام مولانا الإمام

(1) الديوان ص 263 – 264 .

هي أجمل وأفضل أيام الشباب ؛ لأنها تتصف بالبهجة والسرور ، والإشراق والنور ، والطلعة الجميلة ، والوجه الحسن المضيء ، فاللّه عزوجل قسم الخلق إلى قسمين : قسم السعادة وهي تكون للمحب والسعيد ، وقسم آخر للشقاوة وهي تكون للمبغض والحزين والشقي ، فقد ساد العدل في دولته بعد تقلصه ، فهو أمير المؤمنين الحق لديه سعادة لا تنقضي .

ويمدح الشاعر الخليفة المستضيء باللّه بقصيدة أخرى تتألف من تسعة وأربعين بيتًا، يبدأوها بالتغزل بالممدوح ثم يمدحه بعد ذلك، ويذكر فضائله وكرمه ، كما في قوله :

بجـــودِ أمـــيرِ المـــؤمنينَ وسَـــيْبهِ ... تَفيضُ على أرضِ الأماني فُيوضُها

إمـــامُ البرايـــا خيرُهـــا مُستضـــيئها ... غزيـــرُ الأيـــادي جَمُّهـــا مُستفيضُـــها

تفـــيضُ لترويـــضِ الرَّجـــاءِ مياهـــهُ ... وللـــتُّجح يُرجـــى عـــدُّها ونضيضُـــها

جزيلُ العطايا وافرُ الفضلُ وارفُ الـ ... ظِّـــلالِ طويـــلُ المـــأثراتِ عريضُـــها

تبـــدّلُ بـــالأموالِ آمـــالُ وَفـــدِهِ ... فكـــم فاقـــةٍ منّـــا بوجـــدٍ يعيضُـــها

ويفـــتحُ مـــن مُدّاحـــهِ باللُّهـــا اللّهـــا ... وقد حال من دونِ القريضِ جَريضُها

اذا اقترحـــتْ منّـــا القـــرائحُ مُدحَـــه ... تســـابق مـــن شـــوقٍ إليـــه قريضُـــها

مُواليـــه مشـــكورُ المســـاعي نَجيحهـــا ... وشـــانيهِ مـــردودُ المبـــاغي دَحُوضُـــها

أتتنـــا وفـــودُ المكرمـــاتِ بجـــوده ... ووافـــى إلينـــا قَضُّـــها وقضيضُـــها[1]

(1) الديوان ص 272 ، وانظر: بالديوان ص 273 – 274 .

في هذه اللوحة المستضيئة يوضح لنا العماد كرم وجود ممدوحه حيث هو أمير المؤمنين وبجوده يفيض الكرم والخير على أرض الأماني ، فهو أيضًا إمام البرايا وخيرها ، وغزير الأيادي وجمعها ، وذلك يدل على الكرم والنعم والعطاء الكثير ، ويتصف الممدوح بصفات أو سمات أخرى مثل : إنه كثير العطايا ، لديه الفضل الكثير ، والكرم العظيم ، والمأثرات الكبيرة ، ولديه الكثير من الأموال لحل المشاكل والخلافات بين الناس ، حيث تأتي إليه الوفود صغيرها وكبيرها من أجل كرمه وجوده .

رابعاً : مدح الخليفة الناصر لدين الله[1] :

نال الناصر لدين الله قصيدة واحدة من مديح العماد ، ووقع في زمنه أعنف المعارك وأشدها في الشام بين الصليبيين والمسلمين ، وكانت معركة حطين دافعًا لنظم تلك القصيدة ، وكانت مجالاً رحبًا لتقديم الطاعة والولاء له يقول :

أبشرْ بفتحِ أميرِ المؤمنينَ أتى ... وصيته في جميعِ الأرضِ جوابُ

ما كانَ يخطرُ في بالٍ تصوّره ... واستصعب الفتحَ لما أُغلقَ البابُ

وخام عنه الملوكُ الأقدمون وقد ... مضتْ على الناسِ من بلواهُ أحقابُ

وجاءَ عصرُكَ والأيامُ مقبلةٌ ... فكان فيه لفيضِ الكفرِ إنضابُ

أحيا الهدى وأماتَ الشّركَ صارمُه ... لقد تجلّى الهدى والشّركُ منجابُ

بفتحه القدسَ للإسلام قد فتحتْ ... في قمع طاغية الإشراك أبوابُ

ففي موافقة البيت المقدّس لله ... بيت الحرامِ لنا تيهٌ وإعجابُ

نفى من القدسِ صلباناً كما نُفيت ... من بيتِ مكة أزلامٌ وأنصابُ

الدهرُ ينصرني ما دام ينسبني ... لخدمة الناصر المنصور نسّابُ

---

(1) انظر: ترجمته في وفيات الأعيان: (2 / 480) – (3 / 244) – (5 / 206) .

بطاعةِ الناصر بن المستضيء أبي الـ ـعباس أحمد للأيام أصحابُ [1]

هكذا نرى العماد في مديح الخلفاء ، يتحرك في محيط ضيق من المعاني والصور؛ لينال الجاه ، ويحظى بالجوائز ، ويأمن عوادي الدهر وغوائله ، ويسلم من كيد الحساد ومؤامراتهم . ولكن المديح يختلف عندما يصبح الشاعر صاحبًا ورفيقًا للممدوح في حلّه وترحاله ، وهذا ما نلمسه بوضوح في قصائده التي قالها في الملوك الزنكيين والأيوبيين والقواد الكبار والرجال الأبرار الذين صمدوا في وجه الجيوش الزاحفة من الغرب وردوهم على أعقابهم خاسرين .

(2) المدائح الأيوبية :

أولاً : مدح الملك العادل نور الدين محمود :

لقد كان شاعرنا من أبرز الشعراء الذين رافقوا الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي المشهور بالشهيد، مدحوه ، وسجلوا مآثره ومجدوا مواقفه ، وخلدوا وقائعه ، ونشروا انتصاراته . قال في إحدى قصائده :

أتمنى في الشام أهلي ببغدادَ وأينَ الشآمُ من بغدادِ
ما اعتياضي عن حُبّهم يعلمُ اللّه تعالى إلاَّ بحبِّ الجهادِ
واشتغالي بخدمةِ الملك العادل محمود الكريم الجوادِ
أنا منه على سرير سُروري راتعُ العيشِ في مَرادِ مُرادي
قيّدتني بالشّام منه الأيادي والأيادي للحُرِ كالأقيادِ
قد وردْتُ البحرَ الخضمّ وخلفـ ـتُ ملوكَ الدُّنيا بهِ كالثَّمادِ
هو نعْمَ الملاذُ من نائبِ الدَّهـ ـرِ ونعْمَ المعادُ عندَ المعادِ

(1) الديوان ص75، 76 .

الغزيـرُ الإفضـالِ والفضـلِ والنـا ... ئـلِ والعـلمِ والتّـقى والسّـدادِ

بـاذلٌ في مصـالحِ الـدِّين طوْعًـاً ... مـا حـواهُ مِـنْ طـارفٍ وتـلادِ

وتـراهُ صـعبَ المقالـة في الشـرِّ ... ولكـنْ في الخـيرِ سـهلَ القيـادِ[1]

وكـان صـدر نـور الـدين ينشـرح بلقـاء العمـاد ، ويسـتأنس بشـعره ، ويطـرب لسماعه ، خاصة شعر الجهاد ، وما ينظم بعد كل معركة ضارية يتجلى الموقف عنها لصالح المسلمين ، ويعود الجنود الفرسان حاملين ألوية النصر والظفر . ولا غرابة إذا ما رأيناه في إحدى وقائعه يطلب منه أن ينشده ما جادت به قريحته . قال العماد بعد انتصار نور الدين على الخصم الباغي في منطقة حوران : كنت راكبًا في لقاء الفرنج مع الملك العادل نور الدين محمود ، وهو يقول : كيف تصف ما جرى ؟ فمدحته بقصيدة [2]:

عُقـدتْ بنصـركَ رايـةُ الإيمـانِ ... وبـدتْ لعصـركَ آيـةُ الإحسـانِ

يـا غالـبَ العُلـبِ الملـوكِ وصـائدَ الـ ... ـصّيدَ اللّيـوثِ وفـارسَ الفُرسـانِ

يـا سـالبَ التيجـانِ مـنْ أربابهـا ... حُـزتَ الفخـارَ على ذوي التيجـانِ

محمـودٌ المحمـودُ مـا بـين الـورى ... في كـلِّ أقلـيمٍ بكـلِّ لسـانِ

يـا واحـدًا في الفضـلِ غـيرَ مشـاركٍ ... أقسـمتُ : مالـكَ في البسـيطةِ ثـانِ

أحلـى أمانيـك الجهـادُ وإنّـهُ ... لـك مـؤذِنٌ أبـداً بكـلِّ أمـانِ

كـم بكـرِ فـتحٍ ولدتْـهُ ظُبـاكَ مـن ... حـربٍ لقمـعِ المشـركينَ عـوانِ

كـم وقعـةٍ لـك في الفـرنجِ حـديثُها ... قـد سـار في الآفـاقِ والبلـدانِ

---

(1) الديوان ص 125 .
(2) الديوان ص 410 .

obeikan.com

كـم مُصْـعبٍ عسـرِ المقـادةِ قدتـهُ نحـو الـرّدى بخـزائمِ الخُـلانِ
قمّصْـتَ قومَصَـهُمْ رِداءً مِـنْ رَدًى وَقَرَنْـتَ رأسَ برِسْـهُمْ بسـنانِ

استهل شاعرنا فى هذه القصيدة بالمدح والثناء على ممدوحه ، برفع راية الإيمان والنصر ، فهو قاهر الملوك ، وصائد الأسود ، وفارس الفرسان ، وأشجع الشجعان ، والحائز أو الفائز بالتيجان ، وفضائله المحمودة منتشرة بين الخلق ، وفى كل إقليم من أقاليم مصر وعلى كل لسان ، واستخدم الشاعر أسلوب النداء أكثر من مرة ؛ للتعظيم وبيان كرم وفضل الممدوح ، حيث هزم الفرنج وقضى على أميرهم ، وتركهم مذلولين بالقيود وفى السجون . والجدير بالملاحظة أنها تشير إلى وحدة الأقطار العربية آنذاك وتضافر القوميات المختلفة في محاربة جيوش الغدر والحقد ، ومازال يواصل مدحه وإبراز فضائله وانتصاراته :

وبلغـتَ بالتأييـد أقصـى مبلـغٍ مـا كـان في وسْـعٍ ولا إمكـانِ
دانـتْ لـك الـدّنيا فقاصـيها إذا حققتَـهُ- لنفـاذِ أمـركَ- دانِ
فمـن العـراقِ إلى الشـآمِ إلى دُرَى مصـرًا إلى قُـوصٍ إلى أُسْـوانِ
لم تلْـهُ عـن بـاقي الـبلاد وإنمـا ألهـاكَ فـرضُ الغـزوِ عـن همَـذانِ
للـرومِ والإفـرنجِ منـك مصـائبٌ بـالتركِ والأكـرادِ والعُربـانِ
إعـزازكَ الـدّينَ الحنيـفَ وحزبَـهُ قـد خـصَّ أهـلَ الشّـركِ بـالإهوانِ
أذعنـتَ للّه المهـيمنِ إذْ عنـتْ لـك أوجُـهُ الأمـلاكِ بالإذعـانِ

لقد أدرك الشاعر أن الأعداء يخشون الوحدة ، ويعلمون أنها تقصم ظهورهم ، وتبدد شملهم ، وتزيحهم من المواقع التي احتلوها ، وتخرجهم من المنازل التي دخلوها

عنوة . لذا نراه يستطرد في كثير من قصائده المدحية إلى الحديث عنها والدعوة إليها، والحث على قيامها لكي يسهل تطويق الغزاة وتحرير الأراضي المسلوبة والأماكن المقدسة من سيطرتهم ، كما فى قوله :

أُغــزُ الفــرنجَ فهــذا وقــتُ غــزوهمُ ... واحطِـمْ جمـوعهمُ بالـدّابلِ الحطـمِ
وطهر القدسَ من رجْسِ الفرنجِ وثبْ ... على البغـاثِ وثـوبَ الأجـدلِ القطـمِ
فملـكُ مصـرُ وملـكُ الشـامِ قـد نظمـا ... في عِقْـدِ عـزٍ مـن الإسـلامِ منـتظمِ
محمــودٌ الملــك الغــازي يسوسُــهما ... بالفضـلِ والعـدلِ والإفضـالِ والـنعمِ
بالشّــكرِ كــلّ لســانٍ نــاطقٍ أبــدًا ... محمــودٌ الملــكُ محمــودٌ بكــلّ فــمِ
فأشــك مصــرَ وأظهــر عــزَّ ســنتها ... كم تقتضي والى كم تشتكي وكَمِ [2]

ويرى شاعر الحماسة الأيوبي " أن الصليبيين أرجاس ، ودماءهم نجسة وهم كفـرة ، وبطـارقتهم وقساوسـتهم يشـيعون الكفـر في الـبلاد الـتي تقـع في قبضـتهم وينشرون سلطانهم على أرضـها ، ونواقيسـهم تـدق فـوق صـواري كنائسـهم ولكـن صلاح الدين الأيوبي طهر بيت المقدس من الصليبيين وأعاد إليه شعائر الإسلام ، وأبطل ما أشاعه رجال الدين الصليبي فيه من عقيدتهم ، وقضى على دق النواقيس، وارتفع الأذان فوق صواري المساجد "[1] .

يقول العماد:

وطهرتَــهُ مِــنْ رِجْسِــهِمْ بــدمائهم ... فأذهبتَ بالرِّجسِ الذي دَهَبَ الرِّجْسَا

(2) الديوان ص 382.
(1) شعر الحماسة خلال الحروب الصليبية في العصر الأيوبي في مصر والشام ، ص 382 ، رسالة دكتوراه، عبد الله إسماعيل حسن ، آداب القاهرة 1985م .
(2) الديوان ص232 .

نَزَعْتَ لباسَ الكُفْرِ عَنْ قُدْسِ أرضها وألبَسْتَها الدِّينَ الذي كَشَفَ اللَّبسَا
وَعَادَتْ ببيتِ اللّهِ أحكامُ دينهِ فلا بَطرَكاً أبقيتَ فيها ولا قَسَا
وَقَدْ شَاعَ في الآفاقِ عنكَ بشارةٌ بأن أذان القُدْسِ قَدْ أبْطَلَ النَّقْسَا[2]

وهكذا نال الشاعر إعجاب نور الدين محمود ، بسبب أعماله الخالدة ورفقته له ، فمدحه بعدة قصائد يوضح فيها فضائله وكرمه وجوده ، ويحثه على محاربة الأعداء ومنازلة الفرسان في وسط الميدان ، وتطهير الأراضي المقدسة من دنس الصليبيين .

ثانياً : مدح البطل صلاح الدين الأيوبي :

بلغ العماد القمة في مدائحه للبطل صلاح الدين يوسف بن أيوب "الذي قاد الجيوش ، وهزم الفرنج ، وكسر شوكتهم ، وحطم قلاعهم ، وخرب حصونهم وأخرجهم من القدس الشريف ، وتكاد هذه المدائح التي وصلت إلينا تكون ملحمة خالدة تصلح لأن تكون درسًا بليغًا للأجيال في الفروسية والتضحية والفداء"[1] .

وعُرف صلاح الدين بحب الشعر وحفظه وترديده ، مُذْ كان قائداً في جيش نور الدين محمود ، وأدرك الشعراء هذا الحب ، فالتفوا حوله ، وتقربوا إليه ، وقدموا مدائحهم بين يديه ، وكان العماد من أوائلهم ، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة قصيدته الأولى التي نظمها سنة 562 هـ أي قبل توليه الحكم بخمسة أعوام ، فقال[2] : "واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف مودة ، تمت لي بها على الزمان عدة ، ولم يزل يستهديني نظمي ونثري ، ويشعرني أنه يميل إلى شعري ، فأول ما خدمته به هذه القصيدة :

(1) ديوان العماد الأصفهاني: تح د. ناظم رشيد ، مطابع جامعة الموصل 1983 ، ص19.
(2) الديوان ص 177 .

كيـــفَ قلـــتم في مقلتيـــه فتـــورُ وأراهـــا بـــلا فتـــورٍ تجـــورُ
لـــو بَصَـــرْتُمْ بلَحْظـهِ كيـفَ يَسْـبى قُلتُـــمْ : دَاكَ كَاسِـــرٌ لا كَسَـــيرُ

يتغزل بالحبيب الذي ملأ عليه قلبه ، ثم انتقل إلى ممدوحه فوصف شجاعته عند النزال ، وصبره في مقارعة الفرسان ، فأطال في مديحه ليوثق علاقته به ، ويصطفيه خليلاً له يستعلي به على الأقران والزمان بعد نزوحه إلى دمشق واتخاذه إياها سكنًا ، والقصيدة في خمسة وثمانين بيتًا[1] :

وَببغـــــدادَ قيـــــلَ إن دِمَشْـــــقاً مـــا بِهـــا للرَّجـــا سِـــواك مُجـــيرُ
مـــا يَـــرَى نـــاظِرٌ نَظـــيرَكَ فيهـــا فَهْـــيَ رَوْضٌ بمـــا تَجـــودُ نَضـــيرُ
لِمَطـــاوي الإقْبـــالِ عنـــدَكَ نَشْـــرٌ وَلِمَيْـــتِ الآمـــالِ منـــكَ نُشُـــورُ
وَمِـــن النَّائبـــاتِ أنّـــي مُقـــيمٌ بدِمشـــقٍ وللْمَقُـــام ِشُـــهورُ
لا حَليـــلٌ يقـــولُ هـــذا نَزيـــلٌ لا أَمـــيرٌ يقـــولُ هـــذا سَـــميرُ

ونَعِمَ العماد بحياة هانئة ، وعيشة راضية في ظل صلاح الدين، حيث أصبح معتمده في الكتابة والمراسلة بعد القاضي الفاضل ، وشاعره الذي يعكس صدى سيرته في السلم والحرب ، ومؤرخه الذي يسجل أحداث أيامه في الشدة والرخاء .

ولا يستطيع شاعرنا أن ينسى مأساة القدس أو يسلو عنها ، إذ نراه يعرج على ذكرها ، ويدعو صلاح الدين إلى النهوض إليها ، وإسعافها ، وتخليصها وكشف كربها[2] :

نهوضـــاً الى القـــدسِ يَشْـــف الغليـــلَ بفـــتحِ الفتـــوحِ ومـــاذا عســـيرُ؟
سَـلِ اللّه تسـهيلَ صـعب الخطـوبِ فهـــو علـــى كـــلِّ شـــيءٍ قـــديرُ

(1) الديوان ص 184.
(2) الديوان ص 194 .

اليــكَ هَجَــرْتُ ملــوكَ الزَّمــانِ فمالـــكَ واللّهِ فـــيهم نظـــيرُ
وفجــركَ فيــه القــرى والقــرآن جميعــاً وفجــرُ الجميــعِ الفُجــورُ
وأنـــتَ تُريـــقُ دمـــاءَ الفـــرنجِ وعنـــدهمُ لا تُـــراقُ الخُمـــورُ

ويبلغ الشاعر ذورته المدحية فى قصيدته السينية التى دبجها إثر فتح صلاح الدين أبواب القدس ، ودخولها ، ورايات النصر تعلو خفاقة فوق هامات جنوده البسلاء، وزغاريد الفرح تنطلق من الحناجر ، وأناشيد الاستقبال تدوى في الميادين العامة، ويقول فى أولها :

أطيـبُ بأنفـاسٍ تطيـبُ لكـم نَفْسًـا وتعتـاضُ مِـنْ ذكـراكمُ وَحْشَـتي أُنْسَـا
وأســألُ عنكُــمُ عَـافيــاتٍ دَوَارِس غَـدَتْ بلسانِ الحالِ ناطِقةً حَـرْسَا[1]

والمقدمة تلائم الموضوع ، فهي تتحدث عن الحبيب الغائب (القدس) والمشوق المنتظر ، وآلام الوجد والفراق[2] :

وإنَّ نهــاري صَــارَ لــيلاً لبُعْــدَكمْ فمـا أبْصَـرَتْ عـيني صـباحًا ولا شمْسَـا
بكيــتُ علــى مســتودعاتِ قلــوبكمْ كما قَدْ بَكتْ قدْمًا على صَخْرِها الخنْسَا
فــلا تحبســوا عَنّــي الجميــلَ فــإنني جَعَلْــتُ حُبّــي لكُــمْ مُهْجَــتي حَبْسَــا

وبعد أن رسم لمدوحه صورة مُثلى ، وجعله قائداً فذاً ، وفارسًا شهمًا ، ينتزع مرابع المسلمين من الأعداء بالقوة والعزيمة ، انتقل إلى فكرة الوحدة التي نادى بها وسعى إليها ، فطلب من صلاح الدين أن يتوكل على اللّه ويقضي على الإفرنج

(1) الديوان ص 230 .
(2) الديوان ص 231 .

obeikan.com

الباقين في الشام ، ويتوجه نحو الديار الشرقية ويضمها إلى دولته ، ويخضع شعوبها لحكمه[1]:

تَوَكلْ على اللّهِ الذي لكَ أصْبَحَتْ ... كلاءتُــهُ دِرْعَاًوعِصْــمَتُهُ ترســـَا

وَدَمِّرْ على الباقينَ واجْتَثَّ أصلَهُمْ ... فإنكَ قَدْ صَيرْتَ دينَارَهُمْ فَلْسَا

ولا تنسَ شركَ الشرقِ غَرْبكَ مَرْوياً ... بماءِ الطُّلى مِنْ صَادِياتِ الظُّبى الخمْسَا

وإنَّ بــلادَ الشــرقِ مُظْلِمــةٌ فَخُــدْ ... خراسانَ والنّهرينِ والتُّركَ والفُرْسَا

مدح الشاعر السلطان صلاح الدين 571 هـ بعد فتح منبج ، يقول[2] :

نزولُــــــكَ في منـــــــبجِ ... علـــــى الظفَـــــرِ المـــــبهجِ

ونجحُـــــــكَ في المـــــــرتج ... وفتحُـــــــكَ للمـــــــرتجِ

دليـــــلٌ علـــــى كـــــلِّ مـــــا ... تحـــــاولُ أو ترتجـــــي

أمـــــورَكَ فيمـــــا تـــــرومُ ... واضـــــحةُ المـــــنهجِ

وشـــــانيكَ دامـــــي الشـــــؤو ... نِ منـــــك شـــــقيّ شـــــجي

ومَـــــنْ كـــــانَ في حِصْـــــنِهِ ... ومـــــن قبـــــلُ لم يخـــــرُجِ

يُقَـــــالُ لـــــه: لـــــيسَ ذا ... بعُشِّـــــكَ قُـــــمْ فَـــــادْرُجِ

ويصفه بالحبيبة[3]:

يـــــروقُني في المهـــــا مُهَفْهفُهـــــا ... وَمِـــــنْ قُـــــدودِ الحســـــانِ أهيفُهـــــا

ومن شيمه تدبير الأحوال وتخفيف الأثقال والعدل والصلاح والتطهير[4]، كما فى قوله :

---

(1) الديوان ص 233 .
(2) الديوان ص 103 .
(3) الديوان ص 306 .
(4) الديوان ص 307 – 308 .

المَلِكُ النَّاصِرُ الذي أبدًا بعِزِّ سُلْطانهِ يُشرِّفُها

قَامَ بأحوالها يُدَبِّرُها حُسْناً وأثقالها يُخَفِّفُها

بِعَدْلهِ والصَّلاحِ يُعَمِّرُها وبالنَّدى والجميلِ يكنِفُها

مِنْ دَنَسِ الغَادِرينَ يَرْحَضُها ومِنْ خباثِ العدا يُظَفِّفُها

وإنه في السماحة يشبه حاتم الطائي ، وفي الوقار يشبه الأحنف :

وإنّهُ في السَّماحِ حاتمها وإنّهُ في الوقارِ أحْنَفُها

ويصفه بالتسامح الديني [1]:

آياتُ دينِ الإلهِ ظاهرةٌ فيكَ ويُثْنِي عليكَ مُصْحَفُهَا

كم جَحْفَلٍ بالعَرَاءِ ذي لَجَبٍ بالصَّفِّ منه يُضيفُ صَفْصَفُهَا

ومن مدائحه في السلطان صلاح الدين ما أنشده إياه سادس شوال 572 هـ[2]:

فديتكَ مِنْ ظَالمٍ مُنْصِفِ وناهيكَ مِنْ باخِلٍ مُسْعِفِ

بلقياكَ يُشْفَى سُقَامي الممضُّ ولكن بسفكِ دمي تَشْتَفي

وتُخْلِفُ وعدَكَ لي بالوِصَالِ حنانيكَ مِنْ وَاعِدٍ مُخْلِفِ

وتُسْتَحْسَنُ العَذرَ طبعاً ومَنْ وَفَى مِنْ ذوي الحُسْنِ حَتى تفي؟!

أيا لَيِّنَ العَطْفِ قاسِي الفُؤادِ بِعَيْشِكَ باللّهِ لِنْ واعْطِفِ

(1) الديوان ص 309 .
(2) الديوان ص 301 .

وبالرغم من مدحه للسلطان إلا أنه يتغزل به فيقول في خده المرهف[1] :

وقـــال أَرَى حَـــدَّه مُرْهَفـــاً ولا عيـــبَ في حَصْـــرِه المُرْهَـــفِ

أَقـــاحٍ وآسٌ وَوَرْدٌ لهـــا اجْـــ تمـــاعٌ علـــى غُصُـــنٍ أَهْيَـــفِ

ويناجي الشاعر الدهر وكأنه صديق يتمنى له الإنصاف[2] :

ويـــا ليـــتَ دَهْـــرِي اذا لم يكُـــنْ بسؤَليَ يُسْعفُ لم يَعْسُفِ

أيبلـــغُ دَهْـــرِيَ قَصْـــدِي وَقَـــدْ قَصَـــدْتُ بمصـــرَ دُرَى يُوسُـــفِ

وفي نهاية القصيدة يأمر العماد " صلاح الدين " بفتح القدس وسفك الدماء ، وتخليص البلاد من الكفر[3] :

فسِـرْ وافْـتَح القـدسَ واسْـفكْ بـهِ دمـــاءً مـــتى تجرهـــا ينظـــفِ

وأهـــدِ إلى الأسْـــبتارِ البـــتارِ وهُـــدَّ السُّـــقوفَ علـــى الأسقـــفِ

وخلِّـصْ مِـنَ الكُـفْرِ تلـكَ البـلادَ يُخَلِّصُـــكَ اللّـــهُ في الموقـــفِ

ويقول في مدحه أيضًا [4]:

بالملـــكِ النَّاصـــرِ اسْـــتَنَارَتْ في عَصْـــرِنا أوجـــهُ الفَضَـــائلْ

علـــيَّ مِـــنْ حقِّـــهِ فـــروضٌ شـــكراً لمـــا جـــادَ مِـــنْ نَوَافِـــلْ

يوســـفُ مصـــرَ الـــذي إليـــهِ تشـــدُّ آمالنـــا الرَّوَاحِـــلْ

أجريـــتَ نـــيلين في ثراهـــا : نيـــلَ نجيـــعٍ ونيـــلَ نائـــلْ

رأيـــكَ في الـــدَّهرِ عَـــنْ رَرَايَـــا جَـــلا مهماتـــهِ الجلائـــلْ

---

(1) الديوان ص 303 .
(2) المرجع السابق .
(3) الديوان ص 304 .
(4) الديوان ص324 .

obeikan.com

كـــم كـــرمٍ مِـــنْ نـــداكَ حـــارٍ وكـــم دمٍ مِـــنْ عَـــدَاكَ سَـــائلْ

وكـــم معـــادٍ بـــلا معـــادٍ ومســـتطيلٍ بغـــيرِ طائـــلْ

وحاســـدٍ كاســـدِ المســـاعي وســـائدٍ نـــاطقِ الوَسَـــائلْ

وفي نهاية القصيدة ، يقول[1]:

عاملكُـــمْ بالخَنـــا فأضحَـــى ورَأْسُـــهُ فـــوقَ رَأْسِ عَامِـــلْ[2]

وحَـــالفُ الـــذُّلِ بعـــدَ عِـــزٍّ والـدَّهـــرُ أحوالـــهُ حَوَائِـــلْ

يـــا مُخجـــلَ البـــحرِ بالأيَـــادِي قَـــدْ آنَ أنْ تُفْتَـــحَ السَّوَاحِـــلْ

فَقَـــدِّسْ القُـــدْسَ مِـــنْ حَبَـــاثِ أرْجَّـــاسِ كُفْـــرٍ غُتَـــمٍ أرَاذِلْ

وهكذا استطاع شاعرنا أن يصف الحرب وما يدور فيها وذلك من خلال مدائحه في الناصر صلاح الدين ، وفتحه لبيت المقدس ، فقد تغنى بهذا الفتح عبر العديد من القصائد ؛ لكي ينال كرم وود الممدوح .

ثالثاً : مدح أسد الدين شيركوه :

لم يكن صلاح الدين هو الوحيد من الأسرة الأيوبية الذي نال مديح العماد ، بل هناك كثيرون تقلدوا غرر قصائده ، منهم والد صلاح الدين نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه ، الذي صال وجال في محاربة الأعداء ويمدحه الشاعر بقصيدة مكونة من سبع وعشرين بيتًا يهنئه فيها بتقلد الوزارة 564 هـ التي مطلعها :

---

(1) الديوان ص 326 .

(2) الخنا : الفحش أو من قبيح الكلام (لسان العرب) . العامل : جمع عوامل : صدر الرمح دون السنان . الأغتم : من لا يُفصح شيئاً ، ويقال : رجل أغتم ، وامرأة غتماء ، وقوم غتم وأغتام .

obeikan.com

بالجدِّ أدركتَ ما أدركتَ لا اللّعب كم راحةٍ جُنيتْ مِنْ دوحةِ التَّعَبِ[1]

وهي تشابه – وزنًا وقافية – قصيدة أبي تمام البائية المشهورة التي مدح بها الخليفة المعتصم باللّه في فتح عمورية والتي مطلعها :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ في حدِّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللعبِ[2]

وبعد تبيان وافٍ عن شخصية الممدوح وبخاصة قدرته القتالية ، وقابليته في الاقتحام والالتحام ، تحول إلى موضوع القدس الذي حرص على إبرازه _ كما ذكرنا _ في كثير من قصائده ، يقول [3] :

افْخَرْ فإنَّ ملوكَ الأرضِ قاطبةً أفلاكها منكَ قَدْ دَارَتْ على قُطبِ
فتحتَ مصرَ وأرجو أن تصيرَ بها مُيسِّرًا فتحَ بيتِ القدسِ عن كثبِ
قَدْ أمْكَنتْ أسدَ الدِّينِ الفريسةُ مِنْ فتحِ البلادِ فبادِرْ نَحْوَهَا وَثبِ
أنتَ الذي هو فردٌ مِنْ بَسَالتهِ والدِّينُ مِنْ عَزْمهِ في جحفلٍ لجبِ
في حَلْقِ ذي الشّركِ مِنْ عدوى سُطاكَ شجاً والقلبُ في شَجنٍ والنَّفسُ فى شَجَبِ
زَارَتْ بني الأصفرِ البيضُ التي لقيتْ حُمْرَ المنايا بها مَرْفُوعَةَ الحُجُبِ
وإنها نَقَدٌ مِنْ خلفها أسدٌ أرَى سَلامَتَها مِنْ أعجبُ العَجَبِ
لقَدْ رَفَعَنا إلى الرَّحمن أيدينا في شكرِنا ما بهِ الإسلامُ منكَ حُبِي

قول الشاعر لأسد الدين : افخر فإن ملوك الأرض تنظر إليك وتقترب منك ، فتحت مصر وبعد ذلك أصبح فتح القدس عن قرب ، فقد تمكنت الفرية من البلاد

(1) الديوان ص 79 .
(2) ديوان أبي تمام : بشرح الخطيب التبريزي 40/1 ، تحقيق/ محمد عبده عزام ، ط3 ، دار المعارف،1972م
(3) الديوان ص 80.

فبادر بالهجوم نحوها وحرر القدس فلديك القوة والبسالة من هزيمة الأعداء وقهره بالبطش ، وأصبح الفرنج " حمر المنايا " وهذا كناية عن الموت .

ويمدحه بقصيدة أخرى يقول فيها :

أصبحتَ بالعدلِ والإقدامِ منفرداً ... فقلْ لنا: أعليٌّ أنتَ أمْ عُمرُ

إسكندرٌ ذكروا أخبارَ حكمتهِ ... ونحنُ فيكَ رأينا كلَّ ما ذكروا

ورُستمٌ خبرونا عَنْ شَجَاعتهِ ... وصَارَ فيكَ عياناً ذلكَ الخبرُ

افْخَرْ فإنَّ مُلوكَ الأرْضِ أدْهَلّهُمْ ... ما قَدْ فَعَلْتَ فكلٌّ فيكَ مُفْتَكرُ

سهرتَ إذْ رقدوا بَلْ هجتَ إذْ سَكنوا ... وصُلْتَ إذْ جبنوا بَلْ طُلتَ إذْ قَصَروا

يَسْتَعظِمُونَ الذي أدركتهُ عجباً ... وذاكَ في جنبِ ما نرجوهُ محتقرُ

شَكَتْ خيولُكَ إدْمَانَ السُّرى وشَكتْ ... مِنْ فلِّها البيضُ بَلْ مِنْ حَطْمِها السَّمرُ

يَسَّرْتَ فتحَ بلادٍ كانَ أيسرُها ... لغيرِ رأيكَ قُفْلاً فَتْحُهُ عَسِرُ[1]

يمدح شاعرنا أسد الدين ويقول له : أنت في عدلك وإقدامك مثل عليّ وعمر بن الخطاب ، وتشبه إسكندر في حكمته ورستم في شجاعته ، وافخر فقد أذهلت وبهرت ملوك الأرض بما فعلت ، فقد شهرت ، وهجت ، وصلت ، وطلت فالذي تفعله قد أصبح عجباً ، وقد حالفك التوفيق والقدر ، وفتحت بلادًا كان فتحها صعباً .

ويمدح نجم الدين أيوب بقصيدة 562 هـ قائلاً فيها :

أرجُو إيابي إليكُمُ ظَافِراً عَجِلاً ... فقَدْ ظَفَرْتُ بنجمِ الدِّينِ أيُّوبِ

مُوَفَّقُ الرأْيِ مَاضِي العَزْمِ مُرْتفعٌ ... على الأعَاجمِ مَجْداً والأعَاريبِ

(1) الديوان ص 170 ، وانظر: مدح أسد الدين شيركوه ص 147 ، 148 ، 172 ، 287 .

أحبَّــكَ اللّهُ إذْ لارَمْــتَ نَجْدَتَــهُ على جبـينٍ بتـاجِ المُلْـكِ مَعْصُـوبِ
أخوكَ وابنكَ صدقًا منهما اعْتَصِمَا بـاللّهِ والنَّصْـرُ وَعَـدٌ غـيرُ مَكْـذُوبِ[1]

شاعرنا يفتخر بنجم الدين أيوب فإنه موفق الرأي أي صاحب رأي سديد وقول صائب صحيح ، وقوي العزيمة ، ذو شأن عال على الأعاجم والأعاريب.

ويقيني أن العماد نجح في مدح الملوك والأمراء والقادة ضد مواجهة العدوان الصليبي،من خلال أجمل الصور وأروع التعابير وتوضيح سمات وصفات كل قائد على حده،فقد نال السلطان صلاح الدين الجانب الأكبر من مدائح العماد ؛ لأنه له الفضل في فتح الكثير من البلدان وتطهير بيت المقدس من رجس ودنس الصليبيين ثم مدح نور الدين محمود، وأسد الدين شيركوه ، ونجم الدين أيوب .

رابعًا : مدائح آل البيت الأيوبي :

لم ينس العماد بقية البيت الأيوبي ، فقد مدحهم بحرارة وبصدق ومشاعر جياشة وحثهم على محاربة الأعداء ومقارعة الفرسان ، فيبدأ قصائده بالعزل ثم ينتقل إلى المدح حيث يذكر فضلهم وكرمهم وجودهم ، ويحثهم على فتح بيت المقدس وتطهيره من دنس الأعداء ، فمن أهل هذا البيت:

1- الملك المظفر تقي الدين عمر [2]، ويمدحه الشاعر قائلاً :

اذا أطلـقَ الملـكُ المظفَّـرُ في الـوغى أعنَّتَــهُ فالشَّــمْسُ بــالنَّقعِ تحــبس
فــذاكَ مُلــوكٌ لا يُلَبُّــونَ دَاعيــاً وكلَّهــم عَــنْ دَعْــوَةِ الحــقِّ يخــنسُ
تَشْـكِّى إليـكَ الغَـرْبُ جَـوْرَ مُلوكـهِ فأشـكيْتَهُ والجـورُ بالعـدلِ يعكـسُ

(1) الديوان ص83 ،84.

(2) الملك المظفر تقي الدين عمر : هو عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، أبو سعيد أعطاه عمه صلاح الدين حماه وعدة بلاد من حماه إلى ديار بكر ثم طمع في بلاد الشرق فقامت بينه وبين صاحب خلاط عدة وقائع وحروب، كان شجاعًا مقدامًا ، كما كان شاعرًا ، مات ببلاد الشرق 587هـ ودفن في ميافارقين ثم نقل إلى مدرسته بحماه بعد ذلك . انظر : النجوم الزاهرة ج 6 / 114 ، لابن تغري بردي ، ط دار الكتب ، القاهرة، 1936م.

openkan.com

سيهدي الى المهدِيَّةِ النَّصْرَ والهُدى ... بهديكُمْ فيها تُونَسُ وتُؤْنَسُ
رَدَدْتَ كرَادِيسَ الفرنجِ وكلَّهمُ ... لدى الأسرِ في غلِّ الصِّغارِ مُكرْدَسُ
وبيضتَ وجهَ الدِّينِ يومَ لقَيْتَهُمْ ... وأبيضَكُمْ مِنْ أسودِ القصرِ أشْوَسُ
أفادَ دَمُ الأنجاسِ طُهْرَ سُيوفكُمْ ... وما يُستفَادُ الطُّهْرُ لولا التَنَجُّسُ
شموسُ ظُبىً تغدو لها الهامُ سُجَّدًا ... فللهِ نصرانيةٌ تَتَمَجسُ
وكم كُفيَ الإسلامُ سُوءًا بملككم ... كَفَيْتُمْ على رغمِ المعَادِينَ كلَّ سو
ولا يفتحُ البيتَ المقدسَ غيركُمْ ... وبيتكمُ مِنْ كلِّ عَابٍ مُقَدَّسُ[1]

يوضح لنا الشاعر قوة الملك تقي الدين عمر في الحرب فعندما يطلق أعنته فالغبار يحبس الشمس عند الظهور، فهناك ملوك لا يلبون نداء الحرب ودعوة الحق، والغرب يشتكي إليك جور وظلم ملوكهم، فالنصر يكون في " المهدية " وكتائب الفرنج أصبحت في الأسر، والسيوف طهرت من دم الأنجاس والبيت المقدس لا يفتح بدونكم.

ويمدحه بقصيدة أخرى573هـ :

بنو أيوب زانوا المُلكَ منهم ... بحليةِ سؤددٍ وتُقى ودينِ
مُلوكٌ أصبحوا خيرَ البرايا ... لخيرِ رَعيَّةٍ في خيرِ حينِ
أسانيدُ السِّيادةِ عَنْ عُلاهُمْ ... مُعَنْعَنَةٌ مُصَّحَحَةُ المتونِ
عزائمهم متى نهدوا لغزوٍ ... مفاتيحُ المعَاقلِ والحصُونِ[2]

---

(1) الديوان ص 238 .
(*) الديوان ص 427 . وانظر : قصائد الديوان ، ص100 ، 457 .
(2) هو ابن أخي السلطان صلاح الدين ، وأقطعه صلاح الدين بعلبك 575 هـ واستنابه بدمشق عنه 576هـ ، وكان قائدًا محنكًا ، وشاعرًا جيدًا ، توفي 576هـ . انظر : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، أحمد بن إبراهيم الحنبلي ، تحقيق: ناظم رشيد ، دار الحرية للطباعة ، بغداد 1979م ، ص 232 .

وهي قصيدة طويلة مكونة من سبع وتسعين بيتًا يمدح فيها بنو أيوب ويوضح فضل وصفات ممدوحه ومدى كرمه وجوده فهو كالطود الرصين ، فبنوا أيوب زانوا الملك بحلية من السؤدد والتقى والدين ، فهم خير البرايا ، وهم أصحاب السادة والريادة وفي الحرب كالأفاعي فتهرب الأسود إلى عرينها ، ولديهم القوة والعزيمة في غزو وفتح أصعب المعاقل والحصون .

2- عز الدين فروخ شاه[1] :

مدحه الشاعر 573 هـ قائلا :

يمينك دأبها بذلُ اليسارِ ... وكفكَ صَوْبُها بدرُ النُضارِ

وإنكَ مِنْ مُلوكِ الأرضِ طُرًا ... بمنزلةِ اليمينِ مِنَ النَّهارِ

وأنتَ البحرُ في بثِّ العطايا ... وأنتَ الطودُ في بادي الوقارِ

أعزَّ الدِّينِ غيثُ الجودِ غوثُ الوَرَى ... طودُ العُلى شمسُ النَّهارِ

حليفُ المجدِ ربُّ الفخرِ تربُ الـ ... سماحِ أخو الحجا زاكي النِّجارِ

غزيرُ المجتدى غمرُ الأيادي ... منيرُ المجتلى عالي المنارِ[2]

نرى في الأبيات السابقة أنها واضحة المعالم ، سهلة التحليل ، يبرز فيها شاعرنا ملامح وصفات ممدوحه ، ويبين لنا كرمه وجوده وسخاءه ، ويشبه بالبحر في بث العطايا والهدايا وبالطود في الوقار ، ويذكر لنا العديد من الصفات الحسنة لدى ممدوحه .

(1،2) الديوان ص195.

obeikan.com

وقوله أيضًا 571هـ :

قَـدْ كـانَ جَيْشَكُـمُ كبحـرٍ زاخـرٍ ... واللابسـون جواشـناً حيتـانُهْ

فَطَمـى لِهُلْكُهُـمُ عليهـم بحـرَكُمْ ... بأسَـاً وغـرَّقَ فَلَكَهُـمُ طـوفانُهْ

فَضَـلَ الملـوكَ الأكـرَمينَ بِفَضْلـهِ ... فَعَـلا زَمَـانهمُ البهيـجَ زمـانُهْ

في فَضْـلهِ في عَـدْلهِ في حِلْـمهِ ... صدِّيقُـهُ ، فاروقُـهُ ، عُثْمَـانُهْ

هـو في السَّـماحِ وفي اللِّقاءِعَليُّـهُ ... هـو في العفـافِ وفي التُّقى سَلْمَانُهْ

مِـنْ آلِ شـاذي الشـائدين لِمَجْـدِهِ ... ببنيـهِ بَيْـتاً عَاليـاً بُنْـيَانُهْ

بيـتٌ مِـنَ العـلياءِ سـام ساحـقٍ ... يَبْني على كيـوانها إيـوانُهْ

يـا سـالبَ التِّيجـانِ مِـنْ أربَابِـهَ ... ومِنَ الثَّنَاءِ مصوغةٌ تيجـانُهْ

الحمـدُ مـالٌ أنتـمُ بُدَّالُـهُ ... والمـالُ حَمْـدٌ أنتـمُ خُـزَّانُهْ[1]

يصور شاعرنا في هذه الأبيات الجيش بالبحر الزاخر الفياض ، والفرسان الحاملة الدروع بالحيتان ، وهذا يدل على القوة والشجاعة ، وبفضل الملوك الأكرمين علا زمانهم البهيج ، وتأمل معي هذا التصوير الرائع ، فهو في فضله مثل الصديق أبو بكر ، وفي العدل مثل الفاروق عمر بن الخطاب ، وفي الحلم مثل عثمان بن عفان ، وفي السماح واللقاء مثل علي بن أبي طالب ، وفي العفاف والتقى مثل سلمان الفارسي ، ويفتخر بآل شاذي ونسبه الأصيل حيث المجد والعز والبيت ذو البنيان العالي الضخم ، فأنتم تنفقون المال وأنتم خزانه .

(1) الديوان ص 436 – 437 ، وانظر قصائد أخرى ص 223 ، 444 ، 445 .

obeikan.com

3- نوران شاه[1] :

يقول فيه كما قال في غيره من أهل البيت 576هـ :

تَـــأَلّقَ بـــرقٌ مِـــنْ تهامـــةَ لامـــعُ ... يُبشِّـــرُ أنَّ اللّه للشَّـــمْلِ جَـــامِعُ

يُحَـاكي خفـوقُ القلـبِ منّـي خفوقَـهُ ... فهـلْ راعَـهُ مثْلـي مِـنْ الـبينِ رَائِـعُ

لقَـدْ طَـال ليلـي لانتظـارِ صَـبَاحَكُمْ ... فهـلْ لثَبَاشِـيرِ الصَّـباحِ طَلائِـعُ

صَفَتْ وضَفَتْ في الجودِ منكَ وفي العُلى ... مشـارعُ بالحُسـنى لنـا ومَـدَارِعُ

كأنّـكَ شمـسُ الدَّولـةِ البـدرُ بيننـا ... ونحـنُ حَوَاليـكَ النُّجـومُ الطَّوَالِـعُ[2]

يمدح شاعرنا شمس الدولة توران شاه كباقي أهل البيت الأيوبي ، كما فيه من صفات الجود والكرم والعلى ، فهو كالبدر عندما يظهر ونحن حواليه كالنجوم الطالعة الظاهرة .

4- الملك الأفضل [3] :

مدحه العماد 583هـ :

والقـدسُ أعضـلَ داؤهُ مِـنْ قـبلكُمْ ... فـــوَفيتُمْ بشـــفاءِ ذاكَ المعْضِـــلِ

دَرَجَ الملـوكُ علـى ثَمَّنـي فتحـهِ ... زمنـاً وغلتهُـمْ بـهِ لَـمْ تُبلـلِ

وأتـى زمـانكمُ فـأمكنَ آخـرًا ... ماقَـدْ تعـدَّرَ في الزَّمـانِ الأولِ

مـا كـانَ قَـطُّ ولا يكـونُ كفتحكُمْ ... للقُـدسِ في الماضـي ولا المستقبـلِ

---

(1) هو توران شاه بن أيوب ، افتتح اليمن ووليها ، توفي بالأسكندرية 576هـ ، ونقلته أخته ست الشام إلى دمشق ودفنته بالشامية . انظر وفيات الأعيان 1 / 273 ، وشفاء القلوب في مناقب بنى أيوب ص 50 .

(2) الديوان ص 289 ، انظر : قصائد عنه ص 290 ، 291 ، 292 .

(3) الملك الأفضل نور الدين علي : ابن صلاح الدين ، ولد بمصر 565هـ ، كان ملك الشام في حياة أبيه ، ثم من بعده ، اختلف مع أخيه العزيز وعمه العادل ، وتقلبت به الأحوال إلى أن صار صاحب سميساط وبقي بها إلى أن مات 622هـ .
انظر : مفرج الكروب : 5 / 155 ، شفاء القلوب ص 256 ، النجوم الزاهرة 6 / 622 – 623 .

أوجـدتمُ منـه الـذي عَـدِمَ الـوَرَى وفَعَلـتُمْ في الفـتحِ مـا لَـمْ يفعـلِ
أيـدي الملـوكِ تَقَاصَـرتْ عَـنْ مَفْخَـرٍ طلـتمْ بـهِ فبلـوا لـبعضِ الأنمـلِ
أحييـتُمْ فـرعَ الكـرامِ ولَـمْ يَـزلْ نصـرُ المحـقِّ بكـم وقهـرُ المبطـلِ[1]

ينـوه الشـاعر إلى أن القـدس أصـعب داء ، ولا أحـد يسـتطيع شـفاء هـذا الـداء حيث أتى الملوك متمنين فتح القدس ، فقد أتى زمانكم وأتمنى أن يكون فيه الفتح فقد تعذر الفتح في الزمان الأول ، وعدمتم الخلق وفعلتم كل شيء في فتح القدس وتقاصرت أيدي الملوك عن الفخر والافتخار ، فبفضلكم أحييتم الكرام ، وحققتم النصر ، وقهرتم الباطل والظلم .

5- الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين[2] :

مدحه الشاعر 571هـ ، وهنأ أباه بقدومه :

يـا أسـداً يحمـي عَـرِينَ العُلـى هنيـتَ جمـعَ الشَّـملِ بالشِّبـلِ
عثمـانُ ذي النُّـورينِ بـينَ الـوَرَى مِـنْ سُـؤددٍ سَـامٍ ومِـنْ فَضْـلِ
يـا طيـبَ النَّجـرِ بلغـتَ المـنى تمليـاً بالطَّاهـرِ النَّجْـلِ
يحكيـكَ إقـدامًا وبأسـًا فَمَـا أشـبه هـذا الفـرعُ بالأصْـلِ
فحائـلُ الرُّشْـدِ علـى بِشْـرِهِ شـاهدةٌ بالفَضْـلِ والنُّبْـلِ
ملـكٌ قَضَـى اللّه لـه أنّـه علـى ملـوكِ الأرضِ يَسْـتَعلي
بالملـكِ النّاصـرِ سُلطانَنَـا طالـتْ يـدُ الإحسـانِ والعَـدْلِ

(1) الديوان ص351.
(2) الملك العزيز عثمان : هو أبو الفتح عماد الدين بن صلاح الدين ، ولد بالقاهرة 567هـ ، وتولى ملك مصر بعد وفاة والده 589هـ ، وتوفي بها 595 . انظر:مفرج الكروب 82/3 ، شفاء القلوب ص234.

بتَّمـــــلهِ المجمـــــوعِ آمَالُنـــــا بنُجِحَهـــا مجموعـــةُ الشَّمـــلِ[1]

يمدحه شاعرنا ويصوره بالأسد الذي يحمي عرينه ، ولكنه هنا يحمي عرين المجد والعلى ، ويمنحه صفة سيدنا عثمان " ذو النورين " فهو بين الخلق يتصف بالسؤدد والفضل و فهو طيب النبت والأصل والحسب فقد بلغ المكنى بالنجل الطاهر ، ويشبه والده في الإقدام والبأس ، فإنه ملك يستعلي على ملوك الأرض بفضله ونبله فطالت يده بالإحسان والعدل والنُّجح .

وهكذا لم يهبط العماد في مستوى شعره الذي قدمه لهؤلاء الملوك المجاهدين والأبطال المنصورين ، والكرماء المشهورين ، بل خصَّهم باجمل الصور وأبدع التعابير وأروع التشبيهات[2] .

(3) مدح العلماء والأدباء :

أبدع العماد في مدح الشخصيات العلمية والأدبية البارزة آنذاك في مصر والشام والعراق ، فقد تعرف عليهم أثناء انشغاله بالتصانيف والتأليف أو العمل في دواوين الدولة ، أمثال : تاج الدين أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي المقريء النحوي الأديب ، والقاضي الفاضل الكاتب والشاعر المشهور ، وعضد الدين محمد بن عبد الله ، ونجم الدين بن مصال ، وجمال الدين محمد بن علي الأصبهاني وشرف الدين بن أبي عصرون ، وآخرين .

---

(1) الديوان ص353 / 354 .

(2) من هؤلاء الملوك الذين مدحهم العماد :
- الملك الكامل محمد بن أبي بكر العادل . انظر: الديوان ص 82 ، 83 ، 155 ، 297 .
- ناصر الدين محمد بن شيركوه . انظر: الديوان ص 163 ، 344 .
- الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين . انظر: الديوان ص 297 .
- الملك المؤيد نجم الدين مسعود . انظر: الديوان ص 122 .

صور الشاعر معانيه في مدائحهم تكاد تكون منتزعة من الجو الذي عاش فيه ، فحينما سكن الشام قريبا من صرير الحديد ، وصهيل الخيل ، وطراد الفرسان ، آثر أن ينقل السامع إلى ميادين المعارك التي أصبحت حينذاك شغل الناس الشاغل ، فمن هؤلاء :

1- **القاضي الفاضل : يمدحه 572هـ قائلا:**

الأسْمَـــرُ الخطِّـــيُّ تابعُـــهُ ... في حكـــمهِ والأبيـــضُ الهنـــدي

والنائبـــاتُ بحـــدِّهِ أبـــدًا ... مثلومـــةٌ مغلولـــةُ الحَـــدِّ

كَـــمْ مـــأزقٍ نقَـــى الغِـــرارُ بـــهِ ... للرُّعـــبِ مِـــنْ جَفَـــنٍ ومِـــنْ غَمْـــدِ

نَفَـــدَتْ بـــهِ اللامـــاتُ طاعنـــةً ... ألفـــاتِ حُرْصَـــانِ القنـــا المُلْـــدِ

والسُّـــمْرُ داميـــةٌ مَطاعنُـــهَا ... كمـــــراودٍ في أعـــــينٍ رُمْـــــدِ

فرَّجْتـــــهُ بشَـــــبَا مُلَطِّفَـــــةٍ ... وَرَدَتْ بقَسْـــرِ القَسْـــوَرِ الـــوَرْدِ[1]

فاليراع الذي يتحرك بيد الممدوح على الصحائف في هذه الأبيات لا يختلف عن الرمح والسيف والدروع بيد البطل المغوار والهمام في ميدان القراع والسيف البتار في قبضة المبارز في حلبة الصراع .

ويمدحه 570هـ قائلا :

فضيل

عاينـتُ طَـوْدَ سكينـةٍ ورأيـتُ شمـ ... ـسَ ةٍ ووردتُ بحـرَ فواضـلِ

ولقيـتُ سَـحْبَانَ البلاغـةِ سَـاحبًا ... ببيانـهِ ثَـوبَ الفَخَـارِ لوائـلِ

أبصـرتُ قُسـاً في الفَصَـاحةِ مُعجـزًا ... فعرفـتُ أنّـي في فَهَاهـةِ باقـلِ

(1) الديوان ص 134 .

حلفُ الفَصَاحةِ والحصَافةِ والسَّمَاحةِ والحمَاسةِ والتُّقى والنائلِ

بحرٌ مِنَ الفَضْلِ الغزيرِ خِضَمُّهُ طامي العُبابِ ومالهُ مِنْ سَاحلِ

وجميعُ ما في الأرضِ سَبعةُ أبحرٍ وبحورهِ تُسْمَى بعشرِ أنامل

في كفِّهِ قلمٌ يُعَجِّلُ جريُهُ ما كانَ مِنْ أجلٍ ورزقٍ آجلِ

يجري ولا جَرْيَ الحسامِ اذا مَضَى حَدَّاهُ بَلْ جَرْيَ القَضَاءِ النازلِ[1]

يبرز شاعرنا أبرز مظاهر الفضل والكرم لمدوحه ويصفه بسحبان في بلاغته ، وقسا في فصاحته ، وباقلا في فهاهته ، ويتسم أيضًا بالفصاحة والحكمة والتعقل والسماحة والحماسة والتقى ، وهو بحر من الفضل والكرم الغزير الخضم طامي العباب ليس له ساحل ، وكل ما في الأرض سبعة أبحر ولديه عشرة أبحر ، وفي كفه قلم يجري في كل صوب وحدب ، كجري السيف في القضاء النازل " المعركة " .

مدح العماد القاضي الفاضل في عدد كبير من القصائد[2] ، نظرًا للمكانة التي كان يشغلها ، وقرب العماد منه أصبح يسير على نهجه ودربه ويتأثر به في كتاباته ويسلك مذهب التصنع في الشعر والنثر .

2- الشيخ تاج الدين أبى اليمن الكندى[3] : يمدحه قائلا :

وقالوا رأينا فَاضِلاً ذا نباهةٍ أديباً يفوقُ الفَاضلينَ بفَخْرِهِ

يُدينُ حبيبَ والوليدَ لنظْمِهِ ويحمدُهُ عبدُ الحميدِ لنَثْرِهِ

ولو عاشَ قَسٌ في زمانِ بيانهِ لكانَ مُشِيدًا في البيانِ بشُكرِهِ

---

(1) الديوان ص 341 – 342 .

(2) انظر القصائد بالديوان : ص 127 ، 129 ، 383 ، 393 .

(3) هو أبواليمن زيد بن الحسن الكندى ، البغدادى المولد والمنشأ، الدمشقى الدار والوفاة المقرىء النحوى الأديب . ت 613هـ. انظر : وفيات الأعيان (2 /339) .

فَضَـائِلُهُ كالشَّـمسِ نُـورًا ولَـمْ تـزلْ مَناقِبُـهُ في الـدَّهرِ أعـدادَ زَهـرِهِ

بيـانٌ هـو السِّـحْرُ الحـلالُ وإنّنـا نـرى معجـزًا مِـنْ فَضْـلهِ حَلَّ سـحرِه

ذوو الفَضْلِ هُمْ عنـدَ الحقيقـةِ أبحـرٌ ولكـنَّهُمْ أضـحُوا جَـدَاولَ بحـرِهِ

يضوعُ مهـبُّ الحمدِ مِنْ عُرفِ عرفهِ وتـأرَجُ أرجـاءُ الرَّجـاءَ بنشـرِهِ

فقلـتُ لهـمْ هـذا الـذي تصـفونَهُ أبو اليُمنِ تـاجُ الدِّينِ أوْجَهُ عَصْرِهِ[1]

يذكر لنا ملامح ونباهة الشيخ تاج الدين الأدبية ، حيث يفرق الفاضلين بفضله وعلمه ، فهو في النظم مثل أبي تمام والبحتري ، وفي النثر مثل عبد الحميد الكاتب ، ولو عاش قس في زمانه لأصبح رائدًا في البيان بفضله ، وينثر الشاعر فضائله التي مثل الشمس تشع نورًا ، وهو السحر الحلال ذو معجزة ، والفضل عنده أبحر وهذه يدل على الكثرة وغزارة كرمه وفضله ، ويفوح من عصره رائحة طيبة عطرة .

3- **شرف الدين بن أبي عصرون**[2] :

مدحه العماد 563هـ كما في قوله :

أيـا مَـنْ لـهُ همـةٌ في العُلـى لـذروتها أبـداً فارِعَـهْ

ومَـنْ كفُّـهُ ديمـةٌ مـا ثَـرَا لُ بـالعرفِ هاميـةٌ هامِعَـهْ

وللفَضْـلِ في سُـوقِ أفضـالهِ بضـائعٌ نافقـةٌ نافِعَـهْ

وهَـلْ كـابنِ عَصْـرونِ في عَصْـرِنا إمـامٌ أدلتُـهُ قاطِعَـهْ

فخـيرُ فوائـدهِ جَمّـةٌ وبحـرُ مـواردِهِ واسِـعَهْ

---

(1) الديوان ص 216 – 217 .

(2) هو الفقيه شرف الدين بن أبي عصرون بن أبي السري التميمي الموصلي ، ولي قضاء سنجار وحران ، جاء إلى حلب 545هـ ، ودخل دمشق 573هـ ، كف بصره قبل موته بعشر سنين ولد 492هـ ، وتوفي 585هـ ، بدمشق . انظر : النجوم الزاهرة 6 / 110 ، وفيات الأعيان 3 / 53 .

أيـــا شـــرفَ الـــدِّينِ شَـــرَّفتني بإهـــــداءِ رائقـــــةٍ رائِعَـــــهْ

أطعـــتُ أوامـــركَ السَّـــاميات ومـــا بَرَحَـــتْ هَمّـــتي طائعَـــهْ

أرى كُـــلَّ جارحـــةٍ لـــي تـــودْ دُ لـــو أنهـــا أُذنٌ سَـــامعَهْ

وأمـــا الشِّـــتاءُ وكافائُـــهُ وكفُّـــكَ عَـــنْ كفِّـــهِ الرَابِعَـــهْ

فنفســـي تُطيـــقُ إذا لَـــمْ تَكُـــنْ بِمَيْسُـــورِ سَـــيِّدِنا قانعَـــهْ[1]

يـذكر شـاعرنا فضـائل وكـرم ممدوحـه ، فلديـه الأدلـة والـبراهين القاطعـة ، وسـخاءه مثـل السـحاب المـاطرة ، ولديـه بضـائع كـثيرة ونافعـة ، وفوائـده كـثيرة ومتعددة ، وموارده واسعة لا تنتهي .

4- جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني[2]:

مدحه الشاعر بقصيدة مكونة من خمسة عشر بيتاً ، يقول في أولها :

أظـــنهمُ وَقَـــدْ عَزَمُـــوا ارْتِحَـــالاً ثنـــوا عنـــا جَمـــالا لا حِمَـــالا

ســروا والصُّـبحُ مبـيضٌّ الحواشـي فلمـا حَـالَ عَهْـدُ الوَصْـلِ حَـالا

هُـمْ اعْتَـادُوا المـلالَ فكيـفَ مَلُّـوا وِصَـــالهُمْ ومـــا مَلُّـــوا المـــلالا[3]

ثم يوضح بعد ذلك أن ممدوحه هو المغني وهو المنجي ، ويبين مدى كرمه وفضله وجوده ، فقد حاز على المجد والكمال :

هـــو المغنـــى اذا مـــا المـــرءُ أقـــوى هـــو المنجـــي اذا مـــا الخطـــبُ هَـــالا

وقائلـــــةٍ: أفي الـــــدُّنيا كـــــريمٌ ســـواهُ؟ فقلـــتُ: لا وأبـــي العُـــلالا

---

(1) الديوان ص 293 – 294 ، وله مقطوعة ص 96 .

(2) هو جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي الأصفهاني : وزير صاحب الموصل أتابك زنكي كان نبيلاً ، سمحًا كريمًا ، توفي 559هـ . انظر: وفيات الأعيان 5 / 143 .

(3) الديوان ص 332 .

obeikan.com

أطلتَ على الوَرَى كرماً وفخرًا كذلكَ مَنْ حَوَى هذين طَالا
وحُزتَ المجدَ عَنْ كسبٍ وارثٍ فيا صدرَ الوَرَى حُزْتَ الكَمَالا
حُصِصْتَ بكلِّ مَنْقَبةٍ وفَضْلٍ تعالى مَنْ حَبَاكَ بهِ تعَالى[1]

وهكذا نجح العماد في مدح العلماء والأدباء والفقهاء ، فقد كسب ود ممدوحيه ونال عطفهم وكرمهم وحثهم على القتال ، ومن هؤلاء أيضًا : نجم الدين ابن مصال[2] ، وعضد الدين محمد بن عبد الله[3] ، والقاضي أبو اليسر شاكر بن عبد الله[4] ، والقاضي ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري[5].

وإليك أهم خصائص شعر المديح عند العماد :

(1) كثرة الحروب الصليبية كانت سببًا في ظهور المديح ، بسبب حث الملوك على القتال ومحاربة الأعداء وتحرير الأرض المقدسة .

(2) يتصدر الغزل مقدمة قصائده المدحية ، فهو يبدأ القصيدة بالتغزل بالممدوح ثم يحول غزله إلى مدح في سهولة ويسر ، ثم يذكر فضائل وكرم ممدوحه ويحثه على القتال والمقاومة .

(3) امتاز مدح العماد بالبطولة والشجاعة والفروسية في مختلف القصائد ، فقد خص الجانب الأكبر من مدائحه للخليفة المستضيء بالله ، وآل البيت الأيوبي وخاصة القائد صلاح الدين الأيوبي ثم القاضي الفاضل .

---

(1) الديوان ص 333 ، وله "دوبيت" ص 96 .
(2) انظر: الديوان ص 361 " مقطوعة " .
(3) انظر: الديوان ص 137 ، 198 ، 355 .
(4) الديوان ص 63 .
(5) الديوان ص 95 "مقطوعة" .

obeikan.com

(4) استطاع من خلال مدائحه أن يصيب هدفين بارزين : الأول خاص وهو كسب ود الممدوحين وكرمهم وعطفهم ، والثاني عام وهو دفع هؤلاء الممدوحين إلى الجهاد والدفاع عن الوطن وشرف الأمة وعزتها .

(5) تكرار معاني الكرم والشجاعة والفضل والجود مع كل ممدوحيه .

(6) الإعلاء من شأن وقيمة ممدوحيه في مختلف القصائد ، وبث روح التعاون والمحبة بينهم والشجاعة والإقدام في محاربة العدو الصليبي .

(7) كان شاعرنا يمدح الخليفة الواحد بأكثر من قصيدة ، كما فعل مع الخليفة المستضيء بالله ، والمقتفي لأمر الله ، والمستنجد بالله ، والسلطان صلاح الدين والقاضي الفاضل ، ونور الدين محمود وغيرهم ، ولكنه مع الخليفة الناصر لدين الله مدحه بقصيدة واحدة .

(8) مدحه للشخصيات العلمية والأدبية حين ذاك لا يختلف كثيرًا عن مدحه للأبطال داخل ميدان المعركة .

openkan.com